المحاضرة السادسة:مدح الرّسول –صلى الله عليه وسلم–

أ– المدح لغة: ورد في لسان العرب أنّ المدح: «نقيض الهجاء، و هو حسن الثّناء، يقال: مدحته مدحة واحدة و مدحه يمدحه مدحا..و المدائح جمع المديح من الشعر الذي مدح به كالمدحة و الأمدوحة..والممادح: ضد المقابح».[1]

ب– اصطلاحا: و في اصطلاح النقاد، المدح غرض من الأغراض الشعرية« جوهره الثّناء، و تعداد مناقب الإنسان الحيّ، و إظهار آلائه، و إشاعة محامده، و فعاله التي خلقها الله فيه بالفطرة، و التّي اكتسبها اكتسابا، و التي يتوهمها الشّاعر فيه. و شرطه أن يوجّه ثناؤه إلى الأحياء، فإن وجّه إلى الأموات، انقلب الثّناء إلى رثاء»[2]

و قد حظيت شخصية نبينا محمّد–عليه أزكى صلاة و سلام– باهتمام شعراء الدّعوة، فأثنوا على شخصيته، و عدّدوا محاسنه، و أشادوا بعظيم سجاياه و نبل مناقبه.

و تلك الأخلاق الرفيعة، و الشيّم النبيلة أثنى عليها ربّنا في كتابه، فقال فيه: « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ»[3]

ولما بدأ الرسول دعوته، و جاهر بنبوّته، فقد وجد المعترضين، و الحاقدين، و فريقا من المبغضين.

و لذلك أكثر شعراء قريش المشركين أهاجيهم، ضد رسول الله (صلعم) و دعوته. فاستعان الرسول بالشّعراء المسلمين للدّفاع عن الدّين، و الردّ على المشركين، و على رأس هؤلاء حسان بن ثابت.

فحسان بن ثابت هو شاعر الرّسول، الذي قال له: « اهجهم و روح القدس معك». ذكره –ابن سلام الجمحي– في طبقاته، و عدّه من أوائل شعراء القرى العربية[4]قال فيه:

« أشعرهم حسان بن ثابت، و هو كثير الشعر جيّده، و قد حمل عليه ما لم يحمل على أحد».[5]

و كان الرسول يستنشده، و يشجعه على هجاء المشركين و الردّ عليهم، و نصرة الإسلام و نبيّه، فقد روي« أن عمر مرّ بحسان هو ينشد الشعر في المسجد فلحظ إليه، فقال: قد كنت أنشد و فيه من هو

---

[1]– ابن منظور، لسان العرب، مج6، ص27.

[2]– غازي طليمات، الشعر في عصر النبوة و الخلافة الراشدة، ص488.

[3]– سورة القلم، الآية 4.

[4]– انظر: ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج1، ص215.

[5]– نفسه، ج1، ص نفسها.

خير منك، ثم التفت إلى أبي هريرة، فقال: أنشدك بالله أسمعتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « أجب عنّي، اللهم أيِّده بروح القدس» فقال: « الله نعم».[1]

و ممّا قاله في المدح، مشيدا بأخلاق الرسول، و معظما لرسالته:

أغرُّ عليه للنبوّة خاتَـــــم من الله مشهود يلوح و يشهدُ
وَ ضَمَّ الإلهُ اسم النبيّ إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذنُ أشهد
و شقَّ له من اسمه ليجلّه فذو العرش محمود و هذا محمّد
نبيٌّ أتانا بعد يأسٍ و فترةٍ من الرُّسل و الأوثان في الأرض تُعبد
فأمسى سراجًا مستنيرًا و هاديا يلوح كما لاحَ الصقيل المهنَّـــدُ

و أنذرناَ نارًا و بشّر جنَّةً و علَّمنا الإسلامَ فاللهُ نحمَد
و أنت إلهُ الخَلق ربي و خالقي بذلك ما عُمّرت في النّاس أشهد[2]

و يبدو تأثر الشاعر بالإسلام، من خلال اقتباسه من القرآن، و توظيف معجم إسلامي، فقد استعمل ألفاظا تدل على ذلك مثل (النبوّة، الإله، المؤذن، الخمس، نبيّ، محمود، محمد، الرّسل، الأوثان، سراج، نار، جنّة، الإسلام، ربي، خالقي...»

و هي لغة قريبة التناول، ألفاظها بسيطة، مباشرة، بعيدة عن الخيال و الإيحاء..و مع ذلك نلمس فيها روحا إسلامية عميقة، و عاطفة صادقة في محبتها لهذا الرسول و إخلاصها له.

و قال في غير ما مناسبة يمدح الرسول (صلعم) و صحابته:

إنَّ الذَّوائبَ من فهرٍ و إخوتِهِم قد بيَّنوا سنّةً للنّاسِ تُتّبعُ
يرضى بها كلُّ من كانت سَريرتُهُ تقوى الإلهِ و بالأمْرِ الذِّي شرعوا
قومٌ إذا حاربوا ضَرُّوا عدّوَهُم أو حاولوا النَّفعَ في أشياعِهِم نَفعوا
سجيَّةٌ تلك منهم غيرَ مُحدثةٍ إنَّ الخلائقَ فاعلم شَرّها البدَعُ
إن كان في النّاسِ سَبّاقونَ بعدهُمُ فكلُّ سبقٍ لِأدنى سَبقهم تَبعُ
ولا يضنُّون عن مولًى بِفضلِهِم و لا يُصيبُهُم في مَطمعٍ طَبعُ[3]

---

[1]– ابن عساكر، معجم الشعراء من تاريخ مدينة دمشق، تحق: حسام فرفور، ج2، ط1، دار الفكر، بيروت، دمشق، 1421هـ، 2001م، ص 132.

[2]– حسان بن ثابت، الديوان، إعداد: محمد عبد الرحيم، ط1، دار الراتب الجامعية، بيروت، 2008م، ص47.

[3]– ديوان حسان بن ثابت، ص177.

فهو يفخر بالرسول و آل بيته الأطهار، مادحا سجاياه و مناقبه، مشيدا بحماسة المسلمين (الأنصار والمهاجرين) الذين أعلوا الرّايات، و شادوا صروح المجد بجهادهم و حسن بلائهم و صبرهم.

و من الشعراء المسلمين الذين مدحوا رسول الله و نافحوا عن دينه، قولًا و فعلًا (عبد الله بن رواحة) وهو من شعراء المدينة المعدودين، أسلم و حسن إسلامه، استشهد في موقعة مؤتة بعد استشهاد زيد بن حارثة و جعفر بن أبي طالب، و هو«عظيم القدر في قومه، سيّد في الجاهلية، ليس في طبقته التي ذكرنا أسود منه، شهد بدرا.. و كان في الإسلام عظيم القدر و المكانة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم».[1]

و مما قاله في عمرة القضاء، و هو آخذ بزمام ناقة رسول الله، يقودها و قد اجتمع عليه صبيان قريش و غلمانهم:

خلُّوا بني الكفارِ عن سَبيلِهِ خلُّوا فكلُّ الخيرِ مع رسولِهِ
نحن ضَربناكُم عَلى تَأويلِهِ كما ضربناكُم على تنزيلِهِ
ضربًا يزيلُ الهامَ عن مَقيلِهِ و يُذهلُ الخليلَ عن خَليلِهِ[2]

و من الذين عرفوا بمدحهم للرسول (صلعم) كعب بن زهير، كان من المشركين، الذين جاهروا بعداوتهم للإسلام، و هجائهم لرسول الله (صلعم).

ثم إنّ رسول الله أوعده، و أهدر دمه« و كان أخوه بجير بن زهير أسلم. و شهد مع النّبي عليه السّلام فتح مكة و حنينا، فأرسل إليه كعب أبياتا ينهاه عن الإسلام، و ذكره للنّبيّ عليه السلام فأوعده، فأرسل بجير إليه:«ويلك! إنّ النّبيّ أوعدك، و قد أوعد رجالا بمكة فقتلهم و هو و الله قاتلك أو تأتيه فتسلم» فأستطير و لفظته الأرض»[3]

فلما وصله خطاب أخيه، ضاقت عليه الأرض بما رحبت، و لم يجد أجدى و لا أفضل من أن يسلم بين يدي رسول الله، و يترك غوايات الجاهلية و ضلال الشّرك« قدم كعب متنكّرا حين بلغه عن النّبيّ ما بلغه، فأتى أبا بكر فلمّا صلّى الصّبح أتى به و هو متلثّم بعمامته، فقال: يا رسول الله! رجل يبايعك على الإسلام. و بسط يده و حسر عن وجهه، و قال بأبي أنت و أمي يا رسول الله هذا مكان العائذ بك، أنا كعب بن زهير..فأمّنه رسول الله، فأنشد مدحته التي يقول فيها:

---

[1]–ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج1، ص 223.

[2]–نفسه، ج1، ص223.

[3]– نفسه، ج1، ص223، 224.

بانتْ سعادُ فقلبي اليومَ متبولٌ متيَّمٌ إثرها لم يُفدَ مَكبولُ »[1]

و هو يبدأ قصيدته بمقدمة غزلية على عادة الشعراء الجاهليين، و يصف النّاقة في جسامتها و قوّتها و نشاطها، ثم يعرض لكلام الوشّاة و الحسّاد، داحضا أقاويلهم الباطلة، و مدافعا عن نفسه، لينتقل إلى غرض الاعتذار، ثم يمدح النّبي عليه السلام، يقول:

بانتْ سعادُ فقلبي اليومَ متبولٌ متيّمٌ إثرهَا لم يُفدَ مَكبولُ
و ما سعادُ غَداةَ البَينِ إذ رحلوا إلاَّ أغنُّ غَضيضُ الطّرفِ مَكحولُ
أمستْ سعادُ بأرضٍ لا يُبلغها إلاَّ العِتاقُ النَّجيباتُ المراسيلُ
ضَخمٌ مقلَّدُها فَعمٌ مقَيَّدُها في خَلقِها عن بَناتِ الفحلِ تَفضيلُ
يسعى الوُشاة بِجنبَيها و قولِهم إنّكَ يا ابن أبي سُلمى لَمقتولُ
فقلتُ: خَلُّوا سبيلي لا أَبالَكُم فكلُّ ما قدَّرَ الرَّحمانُ مفعولُ
كلُّ ابن أنثى وإن طالتْ سلامَتُهُ يومًا على آلةٍ حدباءِ مَحمولُ
أُنبئتُ أنَّ رسولَ اللهِ أوْعدَني والعفوُ عندَ رَسولِ اللهِ مَأمولُ
مهلاً: هداكَ الذّي أعطاكَ نافلةَ الـ قرآنِ فيها مَواعيظٌ وَتَفصيلُ
لا تَأخُذنّي بأقوالِ الوُشاة ولمْ أُذنبْ وإن كثرتْ فِيَّ الأَقاويلُ
إنَّ الرَّسولَ لَنورٌ يُستضاءُ بِهِ وَصَارمٌ من سيوف الهِندِ مَسْلوُل[2]

ومع أن القصيدة في لغتها ومضمونها بدت جاهلية، متأثرة بشعر الفحول وخاصة النّابغة الذّبياني، الذّي برع في غرضي المدح والاعتذار ولذلك، لمّا يقول كعب:

أنبئتُ أنَّ رسولَ اللهِ أَوْعدني والعفوُ عندَ رسولِ اللهِ مأمولُ[3]

يبدو تأثره بصورة جليّة بالنّابغة الذّي يقول:

أنبئتُ أنّ أبا قابوسَ أَوعدني ولا قَرارَ على زَأرٍ مِن الأَسدِ[4]

و حين يقول كعب :

لا تأخذنّي بأقوالِ الوشاةِ ولمْ أُذنبْ وإن كثُرتْ فِيَّ الأقاويلُ[5]

يتأثر ببيت النّابغة الذي يقول فيه:

---

[1]–نفسه ، السابق، ج1، 99، 100.

[2]– جمهرة أشعار العرب، ج2، 161، 165، 166.

[3]– جمهرة أشعار العرب، ج2، 165.

[4]– المعلقات العشر ، 433.

[5]– جمهرة أشعار العرب، ج2، 165.

لَئنْ كُنتَ قد بُلغتَ عنّي خِيانةً لَمبلِغُكَ الوَاشي أغَشُّ وَأَكذَبُ[1]

فهو يترسم خطاه وينسج على منواله، ومعلوم أن فنّ الاعتذار استحدثه النّابغة الذبياني في الجاهلية. ومع ذلك، فهو في مدحه للرسول (صلعم) مبديا تأسفه عمّا بدر منه معتذرا عمّا سلف، نتلمس لغة رقيقة، بسيطة في تعبيراتها، و ألفاظها غير مستغلقة، رقيقة في أساليبها، يتمثل القرآن الكريم بين الفينة والأخرى، خاصّة في قوله:

شمُّ العَرانين أبطال لبوسَهُم من نسجِ داوُودَ في الهَيجا سَرابيلُ[2]

فهو يتأثر بقوله تعالى: «وعلمناهُ صنعةَ لبوسٍ لكُم لتحْصِنَكُم من بَأسكُم فهَلْ أنتمْ شَاكرونَ».[3]

وقد حظيت القصيدة على مرّ العصور باهتمام الدّارسين والشّراح، فقد أعجب بها رسول الله (صلعم) وخلع بردته وكسى بها كعبا، ولذلك سميت "بالبردة" وعارضها شعار كثيرون في العصور المتتالية، ومن أشهر المعارضات بردة البوصيري التي مطلعها:

إلَى متى أَنتَ باللّذاتِ مَشغولُ وأنتَ عن كلِّ ماقَدَمْتَ مَسؤُولُ

وحفظت الأجيال الإسلامية القصيدة، كما« تبارى الشّراح في شرحها والتّعليق عليها، وتنافس الشعراء في معارضتها وتشطيرها وتخميسها حتى جاوزت آثارهم الخمسين... وقد ترجمها المستشرقون إلى عدّة لغات، وهي من أشهر أشعار العرب، وألبست الشاعر حلّة مجد لا يبلى »[4]

---

[1]– أشعار الشعراء الستة الجاهليين , ص 220

[2]– الجمهرة، ج2، ص167.

[3]– سورة الأنبياء، الآية80.

[4]– واضح الصمد، أدب صدر الإسلام، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر، بيروت، 1414هـ، 1994، ص214.